المجلة الجزائرية للمخطوطات المجلد 17 / العـدد: 2 جوان 2021 ص: 440–462

امارة غرناطة على عهد باديس بن حبوس

429هـ–467هـ/ 1037م–1074م.

Granada during the reign of Badis bin Habous: 429H-467 H / 1037 AD - 1074 AD.

بوخاري عمر [1]، صبان حبيب* [2]

[1] جامعة ابن خلدون . تيارت (الجزائر)، sawarab1954@gmail.com

[2] جامعة ابن خلدون . تيارت (الجزائر)، sebbanehabib@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 24/ 05/ 2021 تاريخ القبول: 06/ 07/ 2021 تاريخ النشر: 25/ 07/ 2021

ملخص: يُعد باديس بن حبوس بن ماكسن ثالث امراء غرناطة الصننهاجين، وأحد أبرز حكامها الموصوفين بالدهاء والشجاعة وحسن السياسة والتدبير، وقف الى جانب امراء البربر في حربهم ضد الاندلسيين من العرب والعامريين، كما برزت في عهده العديد من الازمات على الصعيدين الداخلي والخارجي، ففي الداخل برزت مشكلة اليهود مع اهل غرناطة من العرب والبربر، وكادت ان تجر المدينة الى حرب اهلية، لولا حكمته ومرونته في ادارة الازمة مع ثلة من حاشيته لفض النزاع، وعلى المستوى الخارجي استطاع بحنكته السياسية، وتنظيماته العسكرية ان يتغلب على خصومه ويلحق بهم الهزائم، ويقبض على قادتهم المتآمرين في ميادين الاقتتال.

الكلمات المفتاحية: باديس، غرناطة، البربر، الامارات، الطوائف.

Abstract: Badis son of Habous son of Maxen is Granada's third Sannhajin princes, and one of its most prominent rulers described as cunning, courageous, and a keen politician and manager. He stood by the Berber princes in their war against the Andalusian Arabs and Amarites, additionally, many crises emerged during his reign, both internally and externally. internally, between the Jews and the people of Granada from the Arabs and the Berbers, a problem which almost dragged the city into a civil war, had it not been for his wisdom and flexibility in managing the crisis with a group of his entourage to resolve the conflict. Moreover, on the external level, he was able, with his political insight and military

organizations, to overcome his opponents and catch their defeats, and arrest their conspiratorial leaders in the battlefields.
Key words: Badis, Granada, Berbers, Emirates, sects.

---

* صبان حبيب.

مقدمة:

شهد عهد الطوائف ظهور العديد من الامارات والممالك التي انزوى اصحابها في المناطق التي اقتطعوها لانفسهم، وكان من ابرزها امارة غرناطة وهي من الامارات البربرية التي تأسست في جنوب الاندلس بعد الفتنة القرطبية، وهي مكافأة أسداها سليمان المستعين للفآت البربرية التي ساندته في حربه ضد المهدي. ونظرا لمناعتها الطبيعية، وحسن تدبير ساستها، فقد تصدت للعديد من محاولات الاستلاء والالحاق من قبل الاندلسيين وفي مقدمتهم بنو عباد الذين اشهروا السلاح في وجه البربر، وامام هذه التهديدات برز أحد الحكام من بني زيري وهو باديس بن حبوس ليضبط شؤون امارته، ويفوت فرصة الاخلال بالامن الداخلي، الذي كان ميدانا سانحا للمتآمرين على مملكته، على اعتبار وجود فئة اليهود المتنفذين في بلاط المملكة، من جهة، وفئة البربر والعرب المتذمرين من سياسة الاسرة الحاكمة وتقريبهم لهذا الفصيل من اليهود. اهداف الدراسة: تسعى الدراسة الى ابراز جملة من الحقائق التاريخية، وهي ان الدولة الطائفية مهما كان على رأسها من رؤساء حاذقين ومقتدرين، الا انها فشلت في اطار المشروع الحضاري الشمولي، والوقوف في وجه تهديدات نصارى الشمال، او حتى من دول طائفية مماثلة. المنهجية: تتطلبت الدراسة القاضية بتكوين النص التاريخي المتكامل، الوقوف على جوانب وحيثيات قدوم شخصية باديس الى سدة الحكم، ثم تشريح الازمات الداخلية والخارجية، وهي خطوة ذات اهمية في سياق فهم بذور التحطم التي لاقتها مملكة غرناطة، مستخدمين في ذلك المنهج الوصفي باعتباره شديد الصلة بهذا النوع من الاشكاليات.

أولاً: ولايته للعهد:

ولِي الحكم بعد وفاة أبيه حبوس بن ماكسن سنة 429هـ-1037م[1]، إلا أن قصة ولاية العهد أو من يتولى الأمر بعد حبوس أثارت خلافا شديدا، داخل القصر، وأول خيوط هذه القصة يوردها الأمير عبد الله الزيري في كتابه التبيان، على أنه كان لحبوس ابن أخ يعرف بيدّر بن حباسة قد قرّبه حبوس وآثره

[1] – ابن الخطيب، لسان الدين، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلطانية، القاهرة 1347، ص: 20.

على ولده، لما كان يتحلى به من نباهة وفطنة وحسن تدبير، وكان ممثله في الخلاف والمهمات ولقاء السفراء، وطار صيته في أرجاء غرناطة وأحبّه الجميع.

أما باديس بن حبوس فقد كان على خلاف ابن عمه يدير ، فقد كان في نظرهم طاغية متجبرا، قطوب، وتوقعوا ان صار الأمر إليه ان يقلب لهم ظهر المجن، فناصبوه العداء وآثروا عليه يدير[2].

ويواصل الأمير الزيري كلامه عن باديس ويروى على لسانه قصة ذلك الخلاف الذي دار في القصر في حضرة حبوس يقول عبد الله بن بلقين: «كنت واقفا بين يدي حبوس أبي رحمه الله حتى انتدب إليه من شيوخ صنهاجه من قال له: إن من أكد ما تنظر فيه أن تولي على أمرك من يخلفك ممن ترجى بركته للمسلمين ولبني عمك، فإن الموت يغدو ويروح، فقال أبو العباس كاتبه: ليس يصلح لهذا الأمر إلا يدّير، لطهارته قد اصطنعته واستملته، فسمعت رده على أبي العباس وهو يقول له: ما ينبغي لك ان تتكلم بهذا، كيف يقدّم للأمر غير ابنه، وهو متطلع بجميع الأمور، وقولك أنت وقول غيرك باطل».[3]

فتكوّن لتحقيق هذا الأمر فريقان، فريق من البربر وبعض اليهود وهم جماعة كبيرة العدد قوية النفوذ في غرناطة، وفريق آخر مكوّن من نفس العناصر (البربر واليهود) يقودهم إسماعيل بن النغريلة ويميل إلى باديس.[4]

ومع مرور الوقت لم تبق المنافسة قائمة بين باديس ويدّير، بل زيد عليها مرشح آخر هو ولده الأصغر، بلقيس المعروف بطبيعته وسجياه الحميدة، وعدم ميله للحكم .[5]

وبطريقة أو بأخرى استطاعوا ان يوغلوا صدره بالحقد عليه، إلى أن زجره على رؤوس الإشهاد قائلا: «لا تشره إلى ما ليس لك، يا ابن حباسة».وتجرعها يدير وكانت منطلق لعداوته لباديس منذئذ[6]وعبثا حاول يدبر أن يفوت الفرصة على باديس بإعلان ولائه لبلقين شقيق باديس ولما رأى أصحاب يدير ما يقوم به

---

[2]- عبد الله بن بلقيس، المصدر السابق، ص: 65.

[3]- نفسه، ص: 65.

[4]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 57.

[5]- خالد يونس عبد العزيز الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، 92-711/897-1492، مطبعة دار الأرقم، غزة، ص: 208.

[6]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 66.

في إظهاره الموالاة لبلقين قالوا له: «إن كنت لا تسعى لنفسك، ويكون من سعيك لغيرك ما نرى فباديس أحق بذلك، الذي هو الأكبر والأسعد، وله الرياسة».[7]

فمن هذا الحوار بيّن يدير وأصحابه يستنتج أن المفاضلة كانت بين يدير وباديس، وحتى يثنيهم على العدول عن نصرته قال لهم: «ليس سعيي لبلقين إيثارا مني له على نفسي، غير أنه صحيح النية، غير حاذق بمكان المملكة، وهو شقيق الذي أطلب، ولن أجد لطلبه أقدر على ضرّه من أخيه، فإنما أنا أصيد به، فلو اتسقت لي الأمور، وتهيأ قتل باديس على يدي أخيه، كان أمر بلقين من بعده هينا وخلعه ممكنا».[8]

فابن حيان لا يتوان في وصم أفعاله التي استقاها من معاملته لخصومه حين ظفر بهم يقول عنه: «وأما أرفع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأنا وأشدهم سلطانا وأوسعهم أعمالا فباديس بن حبوس من سلطان صنهاجة ومستخدم الكثير من قبائل زناتة ... أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختبارا، فلبسه بغيا واستكبارا وأساء الانتقام ولم يقل العثرة، واخذ الظنة وأسرف في العقوبة وشدّ يداً بالعصبية، وتقلد الحمية الجاهلية، واستأثر بالقسوة والجبرية فأسلف في ذلك كله أخبارا مأثورة».[9]

وعمد الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقبان إلى تصوير هذه الشخصية على أنها عديمة الصلاح ونظر إليها من الزاوية القاتمة، وساق إليه كل آفة ورذيلة: «كان باديس بن حبوس بغرناطة عاتيا في فريقه عادلا عن سنن العدل... »[10].

ومع توليته كان أعداؤه ينسجون خيوط المؤامرة لتصفيته، وأجمعوا أمرهم على قتله عند خروجه من المنية إلى الرملة، وأوكلوا المهمة إلى شيخ من صنهاجة اسمه فرقان وكافؤوه خمس مائة مثقال، فإهتبل الشيخ هذه الفرصة للتقرب من باديس، فهرع إليه وأشار إليه أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فخرج باديس من الباب الخلفي وجدّ السير نحو قصره.

وأما المتآمرون فقد أعلموا أن باديس لن يأتي إليهم، فقد شغله أمر مقلق وجب الانصراف إليه، وأيقنوا أن أمرهم قد كشف، ولاذ ابن عمه يدير بالفرار إلى أعداء أعمامه وصار في حصن أشبيلية، وصار عينا لهم

---

[7]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 66.

[8]- نفسه، ص: 66.

[9]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص: 230.

[10]- ابن خاقان الفتح، قلائد العقيان ، ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط1، 1409هـ- 1989م، ج1، ص: 81.

يطلعهم على المخادع ويكشف عورات بلاده، وعندها امتثل أمامه رجال صنهاجة الذين اشتركوا في المؤامرة وكانوا أزيد من مائتي رجل، هم يقتلهم، فأشار إليه أحد وزرائه ألا تعاقب ، وإذا عاقبت فكم عسى أن تعاقب فهم أحفادك وأجنحتك، فقبل النصيحة، واحتال للأمر بغير هذا الوجه، فضرب بعضهم ببعض وأفشى فيهم العطايا ليقرب البعض ويبعد البعض[11].

ثانياً: سياسته الخارجية مع دول الطوائف:

لم يكد حبوس يتخلص من المؤامرات الداخلية حتى داهمته المشكلات الخارجية، وهي مشكلات ورثها عن والده حبوس وهي مشكلات مثلثة الأضلاع ويعني بها علاقات غرناطة مع خليفة مالقة، ومع اشبيلة والرزالي، صاحب قرمونة[12]، وزيد على هذا الثلوث محنة أخرى جعلت باديس بين فكي الكماشة، وهي محنة زهير العامري صاحب المرية الذي كان بالأمس حليفا لوالده حبوس بن ماكسن، فقلب بالسلطة الجديدة في غرناطة ظهر المجن وتحول إلى حليف لمحمد بن عبد الله البرزالي الذي ارتمى هو الآخر في أحضان اشبيلية أعداء غرناطة التقليديين يقول ابن حيان: «كان سبب فساد باديس بن حبوس وجماعة قومه صنهاجة على جارهم وحليفهم القديم الحلف والولاية زهير الصقلبي فتى المنصور بن أبي عامر موالاته الكاشحة[13] محمد بن عبد الله زعيم زناتة»[14].

أ. العلاقة مع زهير صاحب المرية:

وأملا في رأب الصدع وتجديد الحلف الذي عقده حبوس مع زهير المعامري لمواجهة أطماع ابن عباد التي أخذت تتجه إلى غرناطة نفسها، خاصة وان مملكة المرية التي ورثها زهير العامري عن خيران تحولت إلى مملكة قوية مزدهرة العمران، وقد توسعت أرجاؤها إلى شاطبة وما يليها وإلى بياسة وما وراء الفج[15]، ومن هذا المنطلق حول باديس استدراج زهير إلى الحلف القديم، ووجه إليه كتابا، يعاتبه فيه على ما بدر منه من

---

[11]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 69-70.

[12]– إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 57.

[13]– الكاشحة،: أدبر، يقال ولما راني كشيح: أي أدبر وولى بكشحه، وكشحه: أي طعنه في كشحه، الزمخشري ابن عمر، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، ص: 544.

[14]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 408، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 169.

[15]– ابن عذاري، نفسه، ج03، ص: 169.

محاولة التملص من الحلف القديم، ويطلب منه تجديد العهد الذي كان بينه وبين أبيه حبوس[16] ويبدوا أن زهير كان يضمر في نفسه أمرا فقد استصغر من شأن باديس وأعرض عنه، وتناس جميلا قد أفل، ولم يذكر حين سيّر محمد بن عباد جيشا لإرغامه على الدعوة لهشام المزعوم فاضطر زهير للاستنجاد بحبوس بن ماكسن صاحب غرناطة الذي لم يتردد في الخروج إلى نصرته حيث انسحب جيش ابن عباد دون أن ينال من زهير.[17]

إلا أن زهير كان واقعا تحت تأثير محمد بن عبد الله البرزالي الذي تباينت مواقفه وهذا ما أشرنا إليه في الرسالة التي وجهها له حبوس بن ماكسن، وطلب منه أن يفصح عن موقفه من الحلف، إلا أن المتأمل في هذه العلاقات بين هؤلاء.يجد أن منطلقها هي مشكلة الولاء للخليفة، فمحمد بن عبد الله البرزال لعب على هذا الحبل، حيث أراد استغلال الخلاف بين خليفة ابن عباد الذي اسطنعه لنفسه، وخلافة مالقة، ليضمن لنفسه الاستقلال بمملكته في قرمونة.

وقد بين ذلك ابن حيان بشيء من التفصيل: «ومضى على ذلك حبوس من عداوته وخلفها كلمة باقية في عقبه أضرم زهير بعد نارها يتمادى تمسكه بالمذكور وإيفاده إليه الممدد بقرمونة، واستخفافه بحق باديس، وإنزاله إياه منزلة الأكفاء، وهيهات له من ذلك من فتى غير قليل التجربة، فآثر شفاء نفسه عن النظر لعاقبه أمره، وأضمر الغدر، وقدم الغدرة، وأرسل رسوله إلى زهير ملطفا في العقاب، مستدعيا تجديد المحالفة».[18]

هشّ زهير لهذا النداء، وهبّ مسرعا إلى ناحيته، ولكن في استطالة، وخيلاء على رأس جيش عرمرم يتقدم رجال دولته، وجاء مدلا بجمعه وكثرته، أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى العامل من عماله، على حد تعبير ابن بسام[19] وقاده عجبه بقوته أن يتجاوز الحدود التي تفصل بين المملكتين، ثم يقاد رسمي إلى مكان الاجتماع إلا أن زهير ركب رأسه وضرب بمراسيم اللقاء بين ملكين عرض الحائط، وتوغل في أراضي مملكة غرناطة في حلف وكبرياء.[20]

---

[16]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 408، ابن عذاري، نفسه، ج1، ص: 169، ابن خطيب، أعمال الإعلام، ص: 216، ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 526.

[17]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 408.

[18]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 409.

[19]- ابن بسام، نفسه، ج1، ص: 409، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 169.

[20]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 59.

وحول أقدام هذا القائد على هذا التصرف اللاّمسؤول، يقدم لنا عبد الله بن بلقين صاحب التبيان دوافع إقدام زهير على هذا الفعل إذ يقول : «وأدركه الطمع في غرناطة، لما بلغ من موت حبوس بن ماكسن، فأتى حتى نزل على مقربة منها بموضع يعرف بالفونت، محتقرا بمن ولي غرناطة ويزعم أنهم أصاغر وأمرهم مختل بعد حبوس، لما أراد الله من هلاكه وهلاك جنسه الخصيان[21]».[22]

وبالرغم من هذا العمل الخالي من اللياقة الذي أثر في نفس باديس، ومع هذا فقد قابله بالحفاوة والتكريم، وأولم له ولمن معه وليمة فاخرة، وأوسع عليه وعلى رجاله في القرى والتعظيم[23]، وعلى الرغم من الحفاوة والتعظيم، فإن المفاوضات التي دارت بينهما على عقد تحالف وطيد، لم تسفر عن نتيجة، وكان زهير أثناء هذا اللقاء يتظاهر بالعظمة والتشطط، الأمر الذي ترك في نفس باديس أثرا سيئا، وزاد في حنقه حين زعم في بعض ما يقوله أن الذي حمله على المجيء إليه هو زيارة قبر حليفه وخليله حبوس بن ماكسن، فأسر باديس ما ابتدر منه في نفسه، ولم يبد له أي امتعاض، وبيّت النية على الإيقاع بأمير المرية. وتأديبه أدبا يكون كفاء لجرأته وجفائه وصمم على الإيقاع بوزيره لما بدا منه من عناد وفظاظة.[24]

وفي غمرة هذا الحوار الذي ازدادت فيه حدة الملاسنة، ولم تسفر عنه أي نتيجة أدرك بلقين بن حبوس أن احمد بن عباس هو صاحب الحلّ والربط في هذه المسألة، ففكر في الانفراد بابن عباس علّه يعود بطائل وذهب إليه حين أقبل اللّيل حتى وافى مجلسه، وخاطبه بقوله: «اتق الله –أيها الوزير– واخش عقابه فأنت الذي يحول دون اتفاق أميره وقد رأيناه اطوع لك من بنانك لا يصدر إلا عن رأيك ولا يعمل إلا بمشورتك ولعلك تدرك أكثر مما ندرك مبلغ ما وصلت إليه من السعادة ... فواجبنا جميعا أن نعود إلى ما كنا عليه من الاتفاق والمحالفة».[25]

---

[21]– الخصيان: هم الصقالية النصاري الذي وقعوا في الأسر أو ابتيعوا في شمال اسبانيا او من وراء جبال البرانس، سعى الصقالية جاهدين لإعادة الخلافة الأموية بعد وقوع الفتنة إذ كانوا يأمرون في استرجاع نفوذهم السابق على عهد الناصر ونجله الحكم، وقد توجه عدد منهم إلى شرق الأندلس، وملكوا عددا من المدن الساحلية، كالمرية، وبلنسية، ودانية وطوطوشة، وكونوا بذلك كيانات عرقية مستقلة، عبد الله ابن بلقين، المصدر السابق، حاشية، رقم 118، ص: 210.

[22]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 70.

[23]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 409، دوزي، ص: 31.

[24]– دوزي رينهارت، المصدر السابق، ص: 31.

[25]– نفسه، ص: 31.

وحول هذه الحادثة يذكر ابن عذاري ولو بإشارة خفيفة، إلى الوزير احمد بن عباس أنه المتحكم بناصية المفاوضات بين زهير وباديس يقول ابن عذاري: «لأول وهلة وحمل زهير أمره على التشطط ووزيره احمد بن عباس يفري الفري في تصريح ما يعرض به زهير».[26]

فلما فرغ بلقين من خلافه حدق ابن عباس في وجهه، بنظرات تشفّ عن نفوذ وسلطان قاهر من جهة وامتهان لمحدثه وزرا به عليه ولما حاول بلقين أن يستعطفه، قام إليه معانقا باكيا، وهو يسترضيه بكلمات رقيقة، فلم يرض بذلك وقال له: «وفر عليك هذه المظاهر الكاذبة، والعبارات الفارغة .... وإن ما قلته لك، هو ما أعيده على مسامعك اليوم، فإذا لم تعمل أنت وأصحابك على تنفيذ ما نريد فسأعمل بعد على ما يدعوكم إلى الحسرة والندم».[27]

فرجع بلقين إلى باديس، غضبانا أسفا لما لحقه من الإهانة والازدراء، وحدثه بكل ما دار بينه وبين ابن عباس من حديث، فامتعض باديس، وفقد كل أمل في استمالة هؤلاء وانتفض قائلا: «إن وقاحة هذا الرجل لا تحتمل فقوموا جميعا، قومة رجل واحد للدفاع عن كرامة المملكة، وإلا فإنكم وما تملكون تصيرون ملكا لغيركم»[28].

وفي رواية ابن بسام التي يرويها عن ابن حيان: أن ابن بلقين بعد أن سمع الردّ من احمد بن عباس[29] قال له: «يا هذا أبهذا أرجع إلى الجماعة، قال: نعم وأشد منه فانصرفت إلى أميرنا باديس ومن معه من المشيخة وإن دموعي لتتحد على وجهي غضبا، فلما رأوا ما بي ابتدروا سؤالي فخبرتهم وقلت: يا صنهاجة هذه إحدى الكبر، قوموا قوموا لدفاعها بقوة وإلا فليست داركم».[30]

---

[26]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 170.

[27]- دوزي رينهارت، المرجع السابق، ص: 32.

[28]- نفسه، ص: 32.

[29]- احمد عباس، كان كاتبا حسن الكتابة، مليح الخط، جيد الخطابة، غزير الأدب قوي المعرفة، شارعا في الفقه، مشاركا في العلوم، مقتبسا للشعر من غير طبع فيه، حاضر الجواب، ذكي الخاطر، جامعا للأدوات الملوكية، جميل الوجه، حسن الخلق، كلف بالأدب، مؤثرا له على سائر لذاته، جماعا للدفاتر، مقتنيا للجيد منها، مغاليا فيها نفاعا من خصه بشيء منها لا يستخرج منه شيء للؤمه إلا في سبيلها أثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها، يقول صاحب التبيان عنه انه كان من أشد الناس حماقة واستخفافا مثيرا للبشر، عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 70، ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 413، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 172.

[30]- ابن بسام، نفسه، ج1، ص: 411.

وبهذه الكلمات الممزوجة بدموع بلقين، استطاع أن يلهب صدر باديس وقومه صنهاجة، وقاموا على بكرة أبيهم لم يتخلف منهم أحد، فأخذ باديس في غسق الليل يعيّن مراتب جيشه وخططه، ونصب الكتائب في مواقع تسمح لها بالرجوع والانقضاض، بما ينبغي من الكتمان والسرية.

وقد كان من التدابير الحربية التي عمد إليها باديس هو تدمير القنطرة التي تعد خط الرجعة الوحيد لجيش زهير.[31]

ومع ما كان من السرية والكتمان فقد تناهى إلى أحد ضباط زهير ما يبيّته باديس وجنوده للغدر بجيش زهير، فقدم إليه يسعى، أن اخرج فإني لك فإني لك من الناصحين، ويسترسل ابن بسام بما لهج له أحد ضباطه الأوفياء وقال له: «أطعني وقلدني عرها، وهون على نفسك هذا الخرق وخل عنها، وتقدم إلى قوادك بالليلة في الارتحال معك سرا، واتخذ الليل جملا فلعلك تجاوز هذه الاوعار فتخرج من هذه الأوعار، فإن القوم متى تبعوك فيها دخلوا من التغرير فيما خرجت عنه وتهيأ لك العطف عليهم في مجال فسيح يمكنك القتال فيه والتعلق ببعض حصونك»[32] ومازال الضابط يسدي النصائح وزهير يصغي إليه، وقبل أن يبدي زهير الموافقة من عدمها ،تدخل ابن عباس يبطل مفعول النصائح ورد عليه بقوله: «هذا وسواس أدخلك فيه الذعر، فردّ عليه الضابط نافيا عن نفسه بما وجهه به ابن عباس، ألمثلي تقول هذا يا أبا جعفر وأنا فارس بن فارس نيّفت على عشرين وقعة وأنت ما قرعتك قط وقعة ستعلم عاقبة أمرك».[33]

وعلى أية حال فإن زهير لم يعر كبير اهتمام إلى نصائح الضابط وباتوا ليلتهم لا يدرون ما يفعل بهم.أما باديس بن حبوس الذي كان متخوفا من المواجهة بسبب عدم التكافؤ في الأعداد، وزاد في من خوفه رؤيا رآها، ونحن ونظرا لما كانت لهذه الرؤيا من أهمية في حياة القادة والزعماء نوردها كما ساقها عبد الله بن بلقين في كتابه التبيان حيث يقول: «وكان جدنا باديس –رحمه الله– قد رأى عند ذلك رؤيا أن الحور بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه، فهاله ذلك، وخشي أن تكون الوقيعة عليه، فأرسل في المعبر وقص عليه، فقال له المعبر أبشر بهذه الرؤيا إن الحور شبيه بالخصيان الذي لا طعم له ولا أصل يتورك عليه وهم بهذه المرتبة، ولاشك في سقوطهم وبوارهم على يدك».[34]

---

[31]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 170، إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 61.

[32]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 412.

[33]– نفسه، ج1، ص: 412.

[34]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 70.

وفي الصباح انصرف زهير يريد المرية، وفي المكان الذي عدّه باديس للملحمة برز جيشه ودوي الطبول يملء تلك الجهات، وتفاجأ جيش زهير، وعلموا انه قد أحيط بهم، ولكنه أحسن تدبير الثبات، فوقف في قلب المعركة، وقدم خليفته هذيلا الصقلبي، من الموالي العامريين الذين لهم بالحروب دراية ومراس واستقبلوا صنهاجة، فلمّا رآهم قادة صنهاجة علموا أنهم حماته وشوكته، ومتى ظفروا بهم كانت الدائرة لهم.[35]

أما باديس فقد قدم أخاه بلقين وكان من أشجع الناس، يتقدم بالجيش إلى معمعة القتال.[36]

فالتحم الفريقان واشتد وطيس المعركة، ومال جيش باديس على خصومه ميلة واحدة رغم قلة عددهم، للخطة المحكمة التي اعتمدها ، وتراجع هذيل قائد جيش المرية مع أصحابه وألتّف حولهم جيش باديس وأحكموا القبض عليهم ،ووقع هذيل في الأسر وسيق إلى باديس الذي عجل بضرب عنقه.

وأما زهير فقد خفي فلم يوجد حيًّا ولا ميّتًا حسب رواية عبد الله بن بلقين [37]، ويضيف ابن الدلائي قائلا "وجهل مصرعه واختلف فيمن قتله"[38] إلا أن ابن الخطيب يعطي تاريخ ومكان الوفاة حيث يقول: «وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال من سنة 429هـ بقرية الفنت من خارج غرناطة».[39]

يعرض الباحث في متن النص مختلف مراحل بحثه حسب البنية المنهجية التي يفرضها الموضوع والتخصص. يقدم المعطيات التي قام بجمعها، ويناقش النتائج المتوصل إليها، لاحظ أنه لا يوجد ترقيم للعناوين، ولذا يرجى عدم ترقيم العناوين، والتقليل من العناوين الفرعية قدر الإمكان.

ب . مقتل أحمد بن عباس:

بعد نهاية المعركة ظفر باديس على وجوه من علية القوم، فيهم الفرسان والقواد الذين ضربت أعناقهم في الحين، وتشمل الأسر جملة الأقلام وفي مقدمتهم وزير زهير الكبير احمد بن
عباسالذيأمربحبسه، وأرجأ قتله مع جماعة من الأسرى وعضعن حملة الأقلام وأطلق سراح ابن جزم والباجي[40] وغيرهما.[41]

---

[35]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 170، ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 217.

[36]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 70.

[37]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 71.

[38]– ابن الدلائي احمد بن عمر، ترصيح الأخيار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م، ص: 83.

[39]– ابن خطيب لسان العرب، أعمال الأعلام، ص: 217.

وكان احمد بن عباس أثمن طريدة غنمها باديس من المعركة، وأراد وهو في طريقه إلى باديس أن يصرف البربر عن الاهتمام به، وان يغالط باديس بان يضمه إلى حملة الأقلام الذين أطلق سراحهم وعفى عنهم، وفي هذا يقول ابن حيان: «وكان من جهة المأثور أن قال يومئذ للذين يحملونه إلى باديس: الله الله في حمولتي، قولوا لأبي مناد باديس يحتاط عليها لا تنخرم، فإن فيها قطعة دفاتر لا كفاء بها، فضحك البربر من جهله».[42]

وفي حديث ابن حيان أنه عندما امتثل أحمد بن عباس أمام باديس، قال له: «أريد أن تتقدم إلى حفظ دفاتري فإنها أهم ما عندي، فتهجم له باديس وقال: أمكرا عند الموت يا إبن الفاعلة؟ إياي تغالط وأمر بتلّه إلى محبسه، فعند ذلك عرف ما يراد به، ويئس من المغالطة في جرمه».[43]

وأمر باديس إيداعه السجن، ينتظر في أمره فيما بعد، وبقي في سجنه شهرين وباديس يتردد في اتخاذ قرار بشأن فديته.

وخلال هذه الفترة كان باديس محل نزاع بين تيارين متناقضين أحدهما يستشفع باديس ويدعوه إلى العفو عنه وزعيم هذا التيار أبو الحزم بن جهور الذي وجه إلى باديس سفارة تشفع لديه في أسرى المرية ويؤكد في شأن ابن عباس بصفة خاصة[44]، وتيّار عبد العزيز بن أبي عامر الذي كان يتمنى الخلاص من زهير وأصحابه[45]، إلا أن باديس كان في غمرة التجاذب بين شهوة عارمة للمال، ورغبة ملحة للانتقام.

وظل على هذه الحال إلى أن كان اليوم الذي خرج فيه مع أخيه بلقين، فلما مرّا على الدّار التي كان يقبع فيها ابن عباس، أمر بإخراجه وجيء به إليه، فأقبل باديس على سبّه وتبكيته بذنوبه، وأحمد يتلطف ويسأله مما هو فيه فرد عليه باديس «اليوم تستريح من هذا الأمر وتنتقل إلى ما هو أشد منه، وكان كلما تضرع ابن عباس، وزاد في أضعاف عدد المال استشاط باديس غضبا، فهذا مزراقه مركز فيه وأمر بجر رأسه

---

[40]- الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد التنجي القوطبي أبو الوليد الباجي، ولد في باجه سنة403 مالكي المذهب، رحل إلى المشرق فأقام بمكة ثلاث أعوام، ثم رحل إلى بغداد فأقام فيها ثلاثا يدرس الفقه ويكتب الحديث، توفي القاضي أبو الوليد سنة أربع وسبعين وأربعمائة، ودفن بالرباط على ضفة البحر وصلى عليه ابن القاسم، ابن بشكوال، الصلة، ص: 176-177.

[41]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 171.

[42]- ابن بسام، المصدر السابق، ج01، ص: 412.

[43]- نفسه، ج1، ص: 415.

[44]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 172.

[45]- ابن بسام، المصدر السابق، ج01، ص: 415.

وعلق ووري جسده التراب خارج القصر[46]، ولن يغن عنه توسل خليفة قرطبة والأعيان من الأندلسيين، إلا ما شمل من بعض الوجوه كابن حزم والباجي الذي سبقت الإشارة إليهم».[47]

ولقد بلغت قسوة باديس على أحمد بن عباس، حدًّا لم يستطع أحدا ان يمتص منها او يخفت نارها،جزاءاً لما اقترفته يداه من تحريضزهير وجره ابن عباس وجرّه إلى الاعتداء .

إلا ان بعض المصادر التي أرخت لهذه الفترة تحمل زهير مسؤولية الإخلال بالحلف الذي كان يحرص باديس على استعادته.[48]

ثالثاً: التنظيم الإداري والمعماري في عهد باديس:

يعد باديس المؤسس الحقيقي لمملكة غرناطة، فهو الذي وطد أركانها، ونظم مراتبها وعمالاتها، وأنشأ جيشا ودربه على القتال والمرابطة، وخاض به العديد من المعارك التي كلل فيها بالنصر على جيرانه من الطوائف، وصلاحيته وهيبته أقرانه، وتناهي أمره في الجلالة وأذعنت له الأعداء وأضافت إلى إسالته البلاد، إلى أن ملك كوره رية[49] وقتسرين وعظمت جبايته، وضخم أمره، وتعددت جيوشه[50].

ومما أورده ابن حيان عن هذه الشخصية قوله: «وأما أرفع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأنا وأشدهم سلطانا واكثرهم رجالا، وأوسعهم أعمالا فباديس بن حبوس من سلطان صنهاجة».[51]

وأما عن سلوكه في التعامل مع أعدائه حين الظفر بهم، يقول ابن حيان: «أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختيارا فلبسه بغيا واستكبارا وأساء الانتقام، ولم يقل العثرة، وأخذ بالظن، وأسرف في العقوبة شديدا بالعقوبة وشديدا بالعصبية، وتقدر الحمية الجاهلية، واستأثر بالقسوة والجبرية فأسلف في ذلك كله أخبارا مأثورة».[52]

---

[46]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 172.

[47]- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 127.

[48]- فيصل أبو الصوف، العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر الطوائف، القرن 05 11 م، رسالة ماجستير نوقشة في قسم التاريخ بجامعة قسنطينة، 2011م، ص: 90.

[49]- رية: كورة من كور الأندلس في قبلي قرطبة نزلها جند الأردن وهي مدينة كثيرة الخيرات ومقصد التجار من جميع الجهات، الحمري، المصدر السابق، ص: 279.

[50]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص: 230.

[51]- نفسه، ص: 230.

[52]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص: 230.

لم يتوقف اهتمام باديس على مغالبة أعدائه في الداخل والخارج، بل صرف اهتمامه إلى عمارة غرناطة ومصرها واختلط قصبتها، وشاد العديد من القصور.

ولكون غرناطة كانت مستهدفه من قبل أعداء باديس قام بتحصينها وتشييد الأسوار المنيعة ويذكر ابن خلدون أن أثار تلك المباني ومصانعها لازالت باقية إلى يوم الناس هذا.[53]

لقد كان لحكم باديس لفترة طويلة أثر كبير في ازدهار المدينة واتساعها، ففي عهده أقيم القصر الملكي على المرتفع المشرف على حي البيازين، وكان هذا القصر يعرف ببيت الديك، نسبة إلى دوارة هواء على شكل ديك كانت تتوجه من أعلاه.[54]

وكان هذا القصر من عظم ما شادته ملوك الطوائف خلال فترة حكمهم، وقد أوصى باديس بأن يدفن داخله أي في المسجد الذي كان يصلي فيه داخل القصر، يذكر ابن الخطيب أن معالم المسجد قد اندثرت وبقي القبر تحف به حلق له باب كل ذلك على سبيل من الخمول وجدت القبر رخام.[55]

لم يكن اهتمام باديس بإعمار غرناطة فحسب بل جدد تشييد قصبة مالقة ووسع منشآتها حتى عادت من أعظم القصبات الأندلسية[56]، ثم أعاد باديس بناء قصبة مالقا فيما بين 449هـ/1057م وانتهى منها في عام 455هـ/1063م، ومازالت آثارها باقية إلى يوم الناس هذا.[57]

وكان هذا القصر محل إعجاب العديد من المؤرخين الذين تناولوه في بعض كتابتهم وقد أشار المقري التلمساني إلى هذه الكتابات التي تعرض أصحابها إلى الجانب العمراني في عهد باديس بن حبوس، ومما جاء في النفح: "ورأيت في بعض كتب التاريخ الأندلسي في ترجمة السلطان باديس الصنهاجي صاحب غرناطة ما نصبه، وهو الذي أكمل ترتيب قصبة مالقة وكان أفرس الناس وأنبلهم ذا مروءة، ونجدة وقصره بغرناطة ليس ببلاد الإسلام والكفر فيما قبل".[58]

رابعاً: الوزارة في عهد باديس:

---

[53]- ابن خلدون عبد الحميد، المصدر السابق، ج06، ص: 213.

[54]- السيد عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة 1985م، ص: 136.

[55]- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 245.

[56]- محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية، ص: 243.

[57]- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 131.

[58]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 196

يعد إسماعيل بن النغريلة من أبرز الشخصيات التي تقلدت منصب الوزير الأول في عهد باديس، فهو قد تقلد إلى جانب هذا المنصب قيادة الجيش وخاض به عشرين غزوة وذكر هو نفسه هذه الغزوات في قصائد[59] وكان يرسل بها إلى أصدقائه اليهود المنتشرين في العالم وخصوصا في الشرق.

ولم تكن مهامه رهينة هاتين الوظيفتين الوزارة والجيش، بل تعدتها إلى مهمة أخرى ألا وهي جباية الأموال، حيث لم يكن ليغيب عنه أهمية المال في حياة اليهود، واختار لهذه المهمة عمالا ومتصرفين من اليهود، نالوا بتكريسهم لهذه الوظيفة الحساسة حظوة، وجاها واستطالوا على المسلمين[60]. وقد أشار ابن بسام إلى هذه الوظيفة التي تقلدها إسماعيل ابن التغريلة ومما جاء في كلامه قوله: "وكان ابن يوسف رجلا من عامة اليهود حسن السيرة فيهم ميمون النقيبة عندهم تولى لباديس ولأبيه حبوس بغرناطة جباية الأموال وتدبير أكثر الأعمال". يلاحظ أن ابن بسام وقع في خلط بين إسماعيل ويوسف فذكر يوسف مكان الأب.

وكان لظهور إسماعيل كما أسلفت في سماء السياسة والتدبير السلطاني جملة من الأسباب يذكرها صاحب التبيان وفي مقدمتها، تلك الخدمات الأمنية، وذلك عندما همّ بنو عمومته بقتله، لكن ابن النغرالة أفشى السِّر، فكانت هذه الحادثة أحد الأسباب القاهرة التي جعلت إسماعيل يحظى بالثقة العمياء لدى باديس، بالإضافة إلى عوامل أخرى زادت من قناعة باديس بأن إسماعيل هو رجل الدولة الذي لا يجب الاستغناء عنه، وهي تلك الصفات التي قد أشرت إليها في هذا الفصل منها الكياسة، ومداراة الناس. وهي صفات قلما يتقنها رجال الدولة، ثم أن باديس كان في حاجة ملحة إلى رجل يؤمّن له الأموال إلا هذه الشخصية الخذقة، المتمرسة على هذه المهن، فكان إسماعيل يجمع هذه الأموال بواسطة اليهود الذي عينهم في هذه المناخين لجباية الأموال، فكان إسماعيل يقدمها لباديس لملأ بها بيت المال.[61]

استمر إسماعيل يدير شؤون الدولة بعبقرية وذكاء، ونال مكانة عالية من حيث المعاملة الحسنة مداراة الناس، واتقاء شرهم، واضعا نصب عينيه الحدود التي لا ينبغي لرجل ذمي يتجاوزها حيال جميع الطوائف مسلمين ومسيحيين، وظل على هذه الحال إلى وفاته عام 447 هـ / 1056[62] وكان قبل وفاته قد أعد ابنه يوسف لاستخلافه في هذه الوظيفة وأعده إعدادا كليا للقيام بأعباء الوزارة بعده، وكان يتمتع بكل

---

[59] – ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج 3 ص: 12 من مقدمة المحقق.

[60] – ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 412.

[61] - عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 68

[62] - عبد المجيد كمال، المرجع السابق ص: 38

المؤهلات العلمية والتثقيفية[63]، وحتى يدربه على شؤون الوزارة ألحقه بخدمة بلقين بن باديس، وعينه كاتبا عنده، وأوصاه بأن يسعى في طلب الوزراء وعرض الأبواب التي منها يكون حتف كل واحد منهم.[64]

إلا أن يوسف لم يكن في مستوى والده من حيث تواضعه، فقد كان مع علو مركزة متواضعا، وسمحت له هذه الخلال اكتساب ود الناس ورضاهم ولم يكن يوسف على شاكلة والده من هذه الناحية.[65]

فتجافا عنه هذه الصفات التي تضمن بقاءه ومنزلته عند باديس ورغبته وقد أورد ابن عذاري نصا في غاية الأهمية يذكر فيه جنوح يوسف عن الغاية التي أدركها أبوه والخط الذي لا يجب على ذمي مهما بلغت درجته أن يتجاوزها، يقول ابن عذاري: ".. وترك ابنا له اسمه يوسف لم يعرف ذلّة الذي ولا قذر اليهودية، وكان جميل الوجه حاد الذهن فاخذ نفسه بالاجتهاد في الأحوال واستخراج الأموال واستعمل اليهود إخوانه على الأعمال فزادت منزلته عند أميره باديس"[66]. ودفعه فوق سائر كتّابه ووزرائه وفوضه في جميع أموري، ويوما يعد يوم اجتمعت في يده جميع السلطات وحتى صار هو الآمر الناهي.[67]

واتخذ لقب أبيه وهو الناغد، وكان لفرط كبريائه يتسم مظهر الملك على حد قول دوزي "كان يوسف في الحقيقة ملكا فوق الملك" ويذكر ابن بسام قوله "أخبرني من رآه يساير صاحبه بساحة قرطبة في بعض قدماته عليها لبعض تلك الشؤون المضلة والفتن المعمئله، قال المحدث: فرأيته مع بادس فلم أفرق بين الرئيس والمرؤوس، فأنشدت "تشابهت المناكب والرؤوس[68] وفي معرض كلام ابن عذاري أنه كان ليوسف عيون عليه في قصره من نساء وفتيان شغلهم بالإحسان إليهم والإنعام عليهم، فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس من كل ما يجري في منزله من شراب ولهو وهزل إلا يعلمه ويعلمه اليهود، فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهودي بذلك.[69]

---

[63]- دوزي راينهارت، المرجع السابق، ص: 80

[64]- مريم الطويل، المرجع السابق، ص: 150

Ron Barkai, chretiens, Musulmans et Juifs dans l'Espagne medievale édition cerf paris 1994 p :180.

[65]- دوزي، المرجع السابق ص: 80

[66]- ابن عذاري المصدر السابق ج 3 ص: 264-265.

[67]- نفسه، ج 3، ص: 264

[68]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 767.

[69]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3 ص: 265، ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1 ص: 440

وزاد في استطالته يومئذ وكان باديس كبير السن فاستغل هذه الفرصة وسيطر على مقاليد الأمور[70]، فسولت له نفسه تنحية سيف الدولة ابن باديس، وذلك عندما دعاه هو ورجاله إلى مأدبة كان قد أعدها له، وجعل السم في الكأس لابن باديس، فرام القيء فلم يقدر عليه وحمل إلى القصر، ومات من غده.

يقول صاحب التبيان "فسولت له نفسه سقيه، وكان متمكنا بذلك، لأن أبانا كان كثير الشرب معه والتكرار عليه في منزله، فشرب يوما على عادته فلم يخرج عنه حتى قذف ما كان في جوفه، واستلقى على الأرض، فلم يستطع المشي إلى منزله إلا عن مشقة، ولبث يومين يجود بنفسه حتى مات رحمه الله".[71]

وبموت بلقين خلى ليوسف الجو، وصار مطلق التصرف، إذ لم يعد هناك من يقف في وجهه، وألقى بيده جميع الأمور وأظن أن القدرة عادت بيديه، وأخذ يتطاول على المسلمين وعلى أهل جميع الأديان، ومن أولى لسعاته هي تلك الأبيات التي منها:

نُقِشَتْ فِي الخَدِ سَطْرًا مِنْ كِتَابِ اللهِ مَوزُونْ[72]

لَن تَنَالُوا البِرَ حَتَى تُنْفِقُوا مِمَا تُحِبُونْ

وتمادى في هذا السبيل، ممتهنا الازدراء والاستخفاف بالمسلمين، وأصبح حديث الخاصة والعامة وجلب لنفسه الكثير من الانتقادات[73]، ليس لكونه يهوديا متعصبا بل كان مستهترا بجميع الأديان يذكر دوزي أن يوسف ابن إسماعيل لم يكن يهوديا إلا بالاسم فقط، وكان لا يصرح بالطعن حيال الدين اليهودي، بيد أنه يجاهر بالطعن في الدين المحمدي ويعيب أحكامه، ويحرف آياته، ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى الإساءة إلى العرب والبربر وحتى اليهود، وجرح كرامة الجميع بكبريائه وترفعه وإعجابه وزهوه، وتبجحه بالآراء اللادينية، وحام بذلك حوله الكثير من التشبيه والظنون وتحدثت بهم طبقة الركباك، وأصبحت تذاع مخاز وفضائح واستهدفته الكثير من الألسنة لاهجة بالخزي[74] والانتقام بكلام موزون وغير موزون، ومن هؤلاء أبو إسحاق الأبيبري الذي فضح مكائد هذه الشخصية وشكر باديس استهتاره بالدين والقيم الإسلامية.

---

[70]- ابن الخطيب، نفسه، ج1، ص: 437.

[71]- عبد الله بن بلقين المصدر السابق، ص: 74

[72]- ابن سعيد الغرناطي المصدر السابق ج 2 ص: 114

[73]- محمد الأمين ولد آن، المرجع السابق، ص: 64

[74]- دوزي، المرجع السابق، ص: 81

وقادته أهواؤه، وشموخ أنفه إلى التطاول على القرآن الكريم، فألف كتابا قصد منه بزعمه بيان تناقض كلام الله، وأثارت هذه الحادثة حفيظة الكثير من العلماء الذين وقفوا على هذا التحدي السافر من يهودي استخف بمقدساتهم، وكان في مقدمة هؤلاء العلماء أبو محمد بن حزم الأندلسي الذي رفع يراعه وهي من دون أن يذكر اسمه، وافتتح كلامه بتأنيب ملوك الطوائف الذين كانوا في نظره سببا في ظهور الزنادقة، والمتقولين، وتشاغلهم بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصورهم عن عمارة شريعتهم، وبجمع الأموال التي بما كانت سببا في انقراض أعمارهم وعونا لأعدائهم عليهم[75].

ومما جاء في الرد على إفك ابن النغريلة قوله: "وبعد فإن بعض من تقلى قلبه للعداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببغضه للرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود التي استمرت لعنة الله على المستسرين بها وأستقر غضبه عز وجل على المنتهين إليها، أطلق الأشر لسانه، وأرخى اليطر عنانه... فألف كتابا قصد فيه بزعمه إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن اعتزازا بالله تعالى أولا ثم بملك صعفة ثانيا واستخفافا بأهل الدين بدءا".[76]

ثم يواصل ابن حزم في نعت هذا اليهودي بالخسيس، والزنديق المستبطن مذهب الدهرية في باطنه، المتكفن بتابوت اليهودي في ظاهره.

ثم يبين ما يستحقه من عقاب، "حقه الواجب عليه من سلفه الدماء واستيفاء ماله وسبي نسائه وولده"[77]. وظل ابن حزم ينافح في دينه وملته طالبا القصاص من يوسف بن النغريلة، ونظرا للضجة التي أحدثتها ردود ابن حزم قام أحد اليهود بتكذيب ما ذهب إليه، وهو ستروما Strouma إلى تكذيب الحادثة معتبرا أن ابن حزم اخترعها من أجل تبرير اتهاماته التي رفعها ضد اليهود وضد ملوك الطوائف الذين سمحوا لهؤلاء باتخاذ موقف قوة وجها لوجه مع المسلمين.[78]

لقد تظافرت هذه الأحداث وغيرها على تشويه صورة يوسف عند الخاصة والعامة الذي ملئوا حقدا وكراهية لما علم عنه من كيد للإسلام، واستضعاف لأهله مع ما سعى به كثير من الغيورين على حرمة الإسلام والمسلمين من نشر للوعي وتحريض للناس بين عامة أهل غرناطة، وحمل كثيرا من جمهرة المسلمين

---

[75]- ابن حزم أبو محمد، رسائل ابن حزم، ج 3 ص: 41

[76]- نفسه، ج 3 ص: 42

[77]- نفسه، ج 3 ص: 42

أَلَا قُلْ لِلصَّنْهَاجَةِ أَجْمَعِينْ ... بُدُورَ الزَمَانِ وَأَسَدَ العَرِينْ

لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُم زَلَّةً ... أَقَرَّ بِهَا أَعْيُنَ الشَّامِتِينْ

تَخَيَّرَ كَاتِبُهُ كَافِرًا ... وَلَو شَاءَ كَانَ مِن المُؤمِنِينْ

[78]- Maribel Fierro : Ibn Hazm et le Zindik Juif in revue de l'occident Musulman n° 63-64-1996 Année 1992 pp 111-116 456

على معداته، وعلى رأسهم الشاعر الزاهد أبو إسحاق الألبيري الذي ذاعت قصيدته بين الخاصة والعامة، حيث رحل عن غرناطة وهو يحمل في نفسه من الحقد والكراهية له ولليهود ما حفزه على أن ينظم فيه وفي اليهود قصيدته التي منها.[79]

80

لم يكترث ابن النغريلة لهذه الأصوات، ولم يلتفت للقدر الذي يجره إلى حتفه، وأردف ذلك بشر أعظم منه فقد تشوفت نفسه إلى خلق كيان يهودي بالأندلس، والإطاحة بباديس وعرشه فكاتب سرا صاحب المرية المعتصم ابن صمادح يعرض عليه الدخول الدخول إلى غرناطة[81] وكان قبل ذلك قد اتصل بالمعتصم على الهرب إلى أي بلد خوفا من أن يطلبه باديس من صاحب ذلك البلد، وتزامن ذلك مع وجود ابن أرقم بغرناطة لمبعوث من المعتصم إلى باديس فاستجار يوسف به، ولكن ابن أرقم ألمح إلى باديس بما يخطط يوسف ضده، عندئذ اتصل يوسف بالمعتصم وأشار عليه إلى أن يسحب رسوله من غرناطة وأمره بالعودة إلى المرية فتم ليوسف ما أراد.[82]

ويرى ابن بسام أن اليهودي عمد، حبسه داخل القصر، "سجنه بين الدّن والكأس ملحدا في أمره مبرما لأسباب غدره" ووعد جاره ابن صمادح أن يقعده مكانه، فأغدق هذا الأخير عليه الأموال وجلا عليه وجوه الآمال، وإنما كان أراد أن يصل عرش البادسي بالصمادحي".[83]

وحتى يهيئ الأمر لابن صمادح ويسهل عليه دخول غرناطة، عمد إلى تخليها من المقاومين الأشداء، وأوهم السلطان باديس بإرسالهم إلى المعاقل المهمة، والحصون، وأسر إليهم بقولهم: "أنتم إخوتي، وقد

---

[79]- دوزي راينهارت، المرجع السابق، ص: 81

[80]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 231

[81]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3 ص: 266

[82]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 84

[83]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 1 ص: 768

أخملتم معي ورأيتموني وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغي لكم إنكاره بأن يقدم عليكم من ليس منكم ولا شأنه شأنكم وتبقى ولايته عارا عليكم وشنارا ما بقي الدهر".[84]

فلما استوثق لهم الأمر وتأكد من نسج مؤامراته، كتب إلى ابن صمادح بخبره بخروج القوم والغوغاء، ولم يبق في المدينة إلا من لا يستطيع المقاومة، كل هذا كان يحدث والمظفر باديس لا خبر عنده إلا الإقبال على الشرب والدعة.

وأغار رجال ابن صمادح، وانتشروا حول غرناطة وصاروا فيها حتى لم يبق منها إلا حصن قريرة[85] على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش.[86]

وظل يوسف اليهودي يلح على ابن صمادح في الإقبال إلى المدينة وأن لا مانع يمنعه، إلا أنه ابن صمادح تهيب في الدخول إلى مستنقع غرناطة وفقد يوسف صوابه، فظل متنقلا من داره إلى القصبة حذرا من العامة حتى يحقق ما أراد.[87]

وظل يوسف يقنع أتباعه أن ابن صمادح على وشك الدخول إلى غرناطة ولكن أحد الحاضرين، وكان من عبيد باديس، خرج مسرعا إلى الشارع ليذيع سر، المؤامرة الخطيرة.

وصاح بالناس وهو يقول: "يا معشر، من سمع بالمظفر قد غدره اليهودي، وهذا ابن صمادح داخل في البلدة". فتجمع الناس، عازمين على قتل اليهودي، ولكي يدرأ عن نفسه تهمة التآمر، أخرج باديس وصاح في الجموع قائلا: "هذا سلطانهم".[88]

فازداد هياج الجماهير، ولم تنطل عليهم حيل اليهودي، وكلهم عزم على قتله، ولما رأى أنه لا نجاة له لاذ بالفرار إلى داخل القصر، وتقفت أثاره الجماهير حتى وقع بين أيديهم، وكان مختفيا في خزانة الفحم وقتلوه، ثم أعملوا السيف في بقية اليهود قتلا وإبادة وتم تصفية أعداد كبيرة منهم، زادت عن ثلاثة ألاف[89]، وقد وصف ابن بسام هذه الحادثة التي سبقت مصرح يوسف بن النغريلة ومذبحة اليهودي

---

[84]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 85

[85]- قريرة: في الأصل قبرة Cabra وحسن قبرة يقع على مرحلة خفيفة من حصن بيانة، وصفه الإدريسي بأنه حصن كبير أشبه بالمدينة حصين البنيان والمكان إسماعيل العربي، دولة بني زيري في غرناطة، هامش رقم 31 ص: 117

[86]- عبد الله بلقين، المصدر السابق، ص: 85

[87]- نفسه، ص: 85

[88]- نفسه، ص: 86.

[89]- ابن عذاري، المصدر السابق ج 3 ص: 275.

بأسلوب أدبي زاوج فيه بين روعة البيان بالحقيقة التاريخية قائلا: "فلما كان اليوم الذي أراد الله فيه إزالة نعمته عليه وإراحة عباده وبلاده منه نذربه أولئك المغاربة، فأعلنوا بالصياح، وثاروا إلى السلاح وأتى الصريخ بقية الجند وعامة أهل البلد ونادى مناديهم، غدر اليهودي وخان، وطاح المظهر (يعنون باديس) وحان، فدخلوا القصر من كل باب وهتكوا حرمة اليهودي دون حجاب فقتل – زعموا – في بعض خزائن الفحم وسمع باديس الوجبة فخرج يقول: إسماعيل لا يحفل بسواه، ولا يرتاع لشيء يسمعه من ذلك ولا يراه"[90].

وكان مقتل يوسف إيذانا، ببداية ملحمة قتالية ضد اليهود لم يروا مثلها منذ زمان طويل.

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول.

خاتمة:

إن المتتبع لمناقب هذه الشخصية، يقف على الكثير من المواصفات الدالة على كفاءته السياسية والعسكرية ولا يسع الباحث النزيه إلا أن يفندها، ويبرز منها ما هو منوط بها، فهناك الكثير من المؤرخين الذين أومأوا إلى هذه الصفات الإيجابية والسلبية) كابن حيان، وابن الخطيب، وهناك من تغاضى عن الصفات الحميدة ولم يبرز إلا عبارات القدح التي لا تليق بالمؤرخ النزيه كابن خاقان صاحب القلائد الذين أو كل باديس بوابل من الشتائم والتعيير.

هذا ويستنتج مما عرضناه حول هذه الشخصية، التي احتلت بأبعادها وانعكاساتها مكانة بارزة في عصر ملوك الطوائف، فقد اتصف بإيجابيات عصره كالشجاعة والأقدام، وشدة البأس وصلابة الميراس، لكن لم ينج من سلبيات ذلك العصر كالقسوة، وحز رؤوس من وقع بين يديه من أعدائه، وكان إلى جانب هذا مقارعا للخمر، مدمنا لها منذ مقتل ابنه بلقين، فقصّر في واجبه عندما ترك إدارة الحكم في يدي عصابة اليهود يعبثون ويسيرون شؤون الحكم وفق مصالحهم، وهنا في حكم بلاطه من العلماء والفقهاء والحكماء.

[90]- ابن بسام، المصدر السابق ج1 ص: 769.

وتتجلى آفاق الدراسة لهذه المرحلة الحساسة من عهد الطوائف، في كونها لا زالت تحتاج الى ابراز جوانب مهمة من حياة الامراء، كشخصية باديس بن حبوس وما هي الاسباب الحقيقية من وراء تقريب العناصر اليهودية على حساب العناصر الاخرى ومنهم البربر انفسهم، وما هي الاسباب الكامنة وراء تراجع حكومة غرناطة امام التهام دويلات الطوائف من العناصر الاندلسية للامارات البربرية الصغرى.

9. قائمة المصادر:

1) المقري أحمد ،(1968)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار، صادر.

2) ابن الخطيب لسان الدين، (2002)كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية .

3) الحميري عبد المنعم،(1975) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت.

4) ابن خلدون عبد الرحمان، (2002)كتاب العبر وديوان المبتد والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية،بيروت.

ابن عذاري المراكشي،(2005) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج من كولان وليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت.

6) ابن خلدون عبد الرحمان،(2007) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر.

7) ابن الخطيب لسان الدين،(1956) أعمال الإعلام فبمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بوفسنال دار المكشوف، بيروت .

8) ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان بيروت.

9) ابن خاقان الفتح، (2001)كتاب تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس، المعروف مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق مديحة الشرقاوي مكتبة الثقافة الدينية.

10) ابن الخطيب لسان الدين،(1964) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب الدار البيضاء.

11) الضبي أبو جعفر، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية بيروت.

12) ابن بشكوال أبو القاسم،(2002) كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت.

13) ابن بسام الشنتري،(1998) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق سالم مصطفة البدري، دار الكتب العلمية بيروت.

14) الأمير عبد الله الزيري،(2011) كتاب التبيان تحقيق أمين توفيق الطيبي منشورات عكاظ الرباط.

15) العذري أحمد بن عمر،(1965) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق عبد العزيز الأهواني مطبعة معهد الدراسات الإسلامية مدريد.

16) ابن حزم أبو محمد،(1989) جمهرة أنساب العرب تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت.

17) ابن خاقان الفتح،(1989) قلائد العقبان في مجالس الأعيان – تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الأردن.

18) ابن الخطيب لسان الدين،(1347هـ) اللمحة البدرية في الدولة النصرية تحقيق محب الدين الخطيب المطبعة السلطانية القاهرة.

19) ابن الخطيب لسان،(1964) تاريخ المغرب في العصر الوسط، وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الإعلام، تحقيق، أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني دار الكتاب، الدار البيضاء.

20) الحميري عبد المنعم الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس

22) فيصل أبو الصوف(2011) العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانية النصرانية في عصر الطوائف القرن 5هـ 11 م رسالة ماجستر نوقشت بجامعة قسنطينة.

23) ذوزي رينهارت، (1963)تاريخ مسملي إسبانيا، ترجمة حسين حبشي دار المعارف، القاهرة.

24) إسماعيل العربي،(1982) دولة بني زيري ملوك غرناطة ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.

25) إحسان عباس، 1960 تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة بيروت

26) السيد عبد العزيز سالم،(1971) قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت.

27) كمال السيد أبو مصطفى،(1993) مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، مؤسسة شباب الجامعة.

28) مريم قاسم الطويل،(1994) مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، دار الكتب العلمية بيروت.

29) دوزي رينهارت،(2012) ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كمال كيلالي.

30) إسماعيل الغربي،(1982) دولة بني زيري ملوك غرناطة ديوان المطبوعات الجامعية.

31) السيد عبد العزيز سالم في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة .1985

32) السيد عبد العزيز سالم، (1988)تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس دار النهضة ا العربية.

33) كمال السيد أبو مصطفى،(1993) مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف مؤسسة شبان – الجامعة.

34) Marbel fierre, Ibn Hazm et le Zindik Juif in revue de l'accident Musulman n° 63-64 / 116 Année 1992